NASS
مركز نون للدراسات الاستراتيجية
Noon Association for Strategic Studies

نحوآفاق مستقبلية للتوجهات الدينية بعد داعش

سعد سعيد الديوه جي

14 مارس / اذار 2017

Noon Association
for Strategic Studies
info@nooncenter.org
www.nooncenter.org

المقدمة:

رغم إيماننا العميق بأن حركة داعش تقف خلفها قوى ظلامية ومخابراتية على مستويات معقدة للغاية مستغلة حالة اللاتوازن والتشظي الذي تعيشه منطقتنا ، إلا أن هذا الأمر لا يعفينا من الإقرار بأن الغطاء الفكري لهذه الحركة موجود في بعض جوانب تياراتنا الدينية- الفكرية ، حيث جرى إستثماره واستغلاله بشكل كبير ، وكان من قبل قد تم إستثماره في حركة القاعدة وحركة طالبان وحركات أخرى في آسيا وافريقيا.

والذي يهمنا هنا وضع بعض الأسس والتوجهات الموجودة في صلب الفكر الإسلامي الأصيل المتصف بالمرونة والواقعية أمام المسلمين عامة والشباب على وجه الخصوص ، بعد ان أغشى ظلام داعش على ظواهر فكرنا الديني نتيجة ممارساته الهمجية والذي تحاول كل التيارات المعادية للإسلام تصويره بأنه يمثل الفكر الإسلامي وهو ليس كذلك .

الفكر الاسلامي:

فالفكر الإسلامي فكر عميق بتيارات متباينة على مدى أكثر من ألف واربعمائة عام ولا يمكن أن تدعي تمثيله فئة لها تصوراتها الخاصة واجتهاداتها المستمدة من تفاسير معينة .

وأول مسألة يجب التأكيد عليها وزرعها في الفكر الإسلامي المعاصر هي مسألة حتمية "الإختلاف الفكري" على أنها مسألة ضرورية لديمومة وحيوية الدين وهو غير الخلاف والصراع الفكري والعقائدي ، وأن فكرة " الفرقة الناجية" بسبب الاختلافات الطفيفة وغير المتعلقة بأركان الدين لا وجود لها وكما يقول الدكتور طه جابر " إن الإختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر فطري طبيعي " ولا يقود إلا للتقدم وبقاء الأصلح استناداً لقوله تعالى " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين

إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، 118-119 هود " وقوله تعالى " الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ، 69 الحج "

والآيتان واضحتان بأن من أساسيات تقدم وتطور الخلق هو الإختلاف ، الذي جعله الفكر الداعشي إن صح التعبير جريمة في كل مناحي الحياة حتى في شكل اللباس ونوعه ولونه ! وهذا الفكر يعد تمثيلاً لما يسمى بالفكر الجهادي السلفي في المصطلحات المتداولة هذه الأيام .

وفي هذا المجال تم التعلق بشكليات غير ملزمة ولا هي من الدين ، ففي مسألة اللباس مثلاً وهو في الإسلام يمثل الستر والزينة يقول تعالى " يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سؤاتكم وريشاً 26 ، الأعراف " ، وهو أمر دنيوي بحت تتحكم به ضوابط الستر والزينة والذوق وتوفر المواد اللازمة له ...الخ .

ولكنه في هذا الفكر صار ركناً أساسياً يحاسب عليه المرء بشدة ، حيث تركوا مسائل الاختلاف بين الصحابة والتابعين في مسائل دنيوية أخرى وراء ظهورهم وهي أمور واقعية لا جدال حولها تدل على واقعية الإسلام ومرونته ثم تركوا الاختلاف بين أئمة الفقه والمذاهب كأبي حنيفة والشافعي ومالك وجعلوها في خبر كان وكأنهم لم يكونوا ولم يجتهدوا ولا علاقة لهم بالدين وهي مسألة خطيرة يجب التركيز عليها خصوصاً بين الشباب المندفع .

وليت الأمور وقفت عند هذا الحد فقد إنعكس الأمر على اعتبار الاختلاف السياسي جريمة ما بعدها جريمة ، علماً أن اول مسألة إختلاف بين الصحابة كانت بعد وفاة الرسول (ص) هي في مسألة استخلافه كما هو معلوم في أجتماع السقيفة ولكن ذلك لم يصل لحد الخلاف والخصومة وبقى كل فريق يحتفظ برأيه ضمن مجتمع موحد وهو محق في ذلك .

إن ما يفتقده هذا الفكر المتزمت هو التفريق بين الأمور الشرعية البحتة والامور السياسية الدنيوية التي يرقى فيها الإجتهاد إلى مستويات عالية ، كما فعل عمر (رض) بمنع الصدقات عن المؤلفة قلوبهم وفيها نص قرآني صريح ، فالزمن ومعطياته كان قد تغير عن زمن الرسول (ص) عند نزول الآية ، ويجب أن تؤخذ مسائل الاختلاف في الفكر السياسي داخل الفكر الإسلامي حيزاً كبيراً في هذه الطروحات .

إن ما يجب علينا أن نشرحه للناس بأن الفكر السياسي المعاصر وبكل جوانبه الإقتصادية والإدارية والاجتماعية وبما يتعلق بالعلاقات الدولية يعتبر فكراً معقداً ، ولا يمكن إستنساخ ما كان عليه الفكر الإسلامي أيام صدر الرسالة ، ولذلك صار الاختلاف فيه أمراً واجباً وأساسياً في مرونة الدين وتكيفه مع كل زمان ومكان .

وهذا الفكر الذي يصف نفسه بالفكر المحارب للبدع تارة وبالفكر الإصلاحي تارة أخرى أو السلفي ، هو فكر لا يعرف فقه ألأولويات في مجمل الحياة والتي تعتبر الأمور الشرعية جزءاً بسيطاً منها ، فبدل أن تطلق طاقات المجتمع نحو البناء والتعمير والتنمية في عالم متسارع نحو هذه الأهداف ، نراهم يولون طاقاتهم نحو مسائل شرعية محدودة وغير ملزمة مثل إطالة اللحى ونقاب المرأة والتدخين وهي مسائل عفى عليها الدهر ، وكما يقول الأستاذ فهمي هويدي عن طالبان وهم نسخة معدلة عن داعش فإن دروسهم وأفكارهم مستغرقة في الجزئيات والفرعيات وبعيدة كل البعد عن استيعاب القضايا الرئيسية أو مقاصد الشريعة .

إن هذه المسائل تأتي من الخواء الفكري والتاريخي لقادة هذه الجماعات وتعلقهم المفرط بظاهر النصوص ، وهو ما يجب بيانه من قبل علمائنا وفقهائنا وبيان خطأ هذا الفكر ، وعدم الإنسياق وراء المجاملات إرضاءاً لهذا وذاك لأنهم منبع هذا الفكر والحاضنة التاريخية له.

وما يجب التأكيد عليه وإفهامه لعموم المسلمين وخصوصاً للخارجين من هذه المأساة المدمرة وبعد ان ترك هذا الفكر أثراً لا يستهان به بإسم الدين هي مسألة استعارة المصطلح الديني العقائدي واستخدامه في غير موضعه فيعملون على تفريق الأمة وتخلفها بعد أن صارت على مفترق طرق ، فزمن الدعوة الأولى ونزول الرسالة له أحكامه ، وبعد إكتمالها وانتشارها له أحكام أخرى في المسائل الدنيوية ، وأن الأحكام المطلقة للآيات القرآنية يجب أن تقترن بأسباب النزول والظرفين الزماني والمكاني وهناك أحكام تسقط بالتقادم وأخرى مستحدثة ، ولهذا قال تعالى بعد اكتمال الرسالة " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، 17 الحج ".

وهذا إقرار بحتمية الإختلاف العقائدي مع الآخر ، ولكنه لا يؤثر على مسيرة مجتمع متنوع الأجناس والعقائد لم يكن له وجود أيام الدعوة وصدر الإسلام ، وأن مجمل الأمر متروك من الناحية العقائدية لحكم الله رب العالمين.

إن منطق الخلاف والخصومة والهمجية الذي يمارسه هذا الفكر يأتي من نكرانه للإختلاف المشروع ، ولذلك تعلقوا بأهداب مصطلح " الشرك" تعلقاً خرافياً وأعطوه أبعاداً خيالية لا وجود لها وبصورة افتعالية متعمدة أساسها استغفال الناس واستغلال المصطلح الديني. فظهر شرك القبور وبه أزيلت جوامع ومساجد يذكر فيها اسم الله .

إن كثيرا من هؤلاء على قناعة كبيرة بفكرهم المتعلق بالسطحيات وبأحاديث مشكوك في صحتها ، وبعده ظهر " شرك القصور" إشارة لمقر الحكومات التي لا يتوافقون معها فهذه المقرات لا تشبه ما كانت عليه الإدارة السياسية أيام الرسول (ص) والخلفاء الراشدين! ، وهو تداخل لا معنى له واستعارة فارغة ، ثم تمادوا أكثر فأخرجوا لنا " شرك الشركات متعددة الجنسيات " وهم لا يدركون ماذا تعني هذه الشركات وما هو أساسها الاقتصادي ، وغداً سيظهر شرك الكيمياء والفيزياء والهندسة والطب ، فكل ما لا يتفقون معه يتم وضعه في باب الشرك وهو باب يأنفه المسلم ويرتعد منه ، وقد كان لسيد قطب دورٌ في إشاعة هذه الأفكار عندما أطلق مصطلح " المجتمع الجاهلي " على المجتمعات المسلمة التي لا تسير حسب ما تخيله هو في أفكاره .

إن هذا الاستغلال للمصطلح الديني يعتبر أمراً مرفوضاً جملة وتفصيلاً في عالم معقد المصالح والتوجهات ويجب ان يفهم الناس بأن هذه المصطلحات دينية بحتة ولا علاقة لها بالأمور الدنيوية والتي في مجملها قد تكون علمانية تتغير بتغير المعطيات العلمية ومصلحة المجتمع في كل المجالات على أن يؤخذ رأي الشارع إن كان له علاقة بالأمر ومن ذوي الاختصاص العارفين بالعلم والدين ، وهي ردائف الشورى الإسلامية أو ما يسمى بالمصطلح المتداول بالديمقراطية .

إن هذه الاستعارات التي لا معنى لها والتي تدل على فكر لا يجيد غير التقليد بحجة الاقتداء بالسلف هي حجج واهية تخلق الارتباك والتشوش لدى شباب الأمة خصوصاً بعد وضعهم بين كماشتي الترغيب والترهيب ، الترغيب بدخول الجنة إن أطاعوا منظري هذا الفكر والترهيب من دخول النار إن عصوهم وبالتالي يكونون مادةً خام للإنحراق عن مقاصد الرسالة الأصلية والتي أصلها جلب المنفعة ودفع الضرر في كل ألأمور .

إن هذا الانحراف ما هو إلا التطرف والتكفير لكل فئات المجتمع ، وهي حقيقة تاريخية بدأت بالخوارج قديماً وحركة " إخوان من طاعة الله" المنشقة عن الوهابية في بدايات القرن الماضي وتمثل داعش وجهاً جديداً لها من الناحية الفكرية على الأقل كما كانت القاعدة وطالبان قبل عقدين من الزمن ولا زالت مجموعاتها موجودة هنا وهناك .

إن التوعية المطلوبة لشبابنا على الخصوص لا تكون بتوحيد خطب الجمعة ولا بحرق الكتب أو بالتعزير والجلد ، إنما تكون من خلال عرض الفكر الإسلامي الواقعي والمرن ودراسة التاريخ الإسلامي بواقعية بعيداً عن العاطفة ويتم ذلك بواسطة وسائل الإعلام كلها وفتح باب النقاش والحوار وإعطاء الحرية للجميع لطرح آرائهم وحججهم ثم تذكيرهم أن الإختلاف العصري أمر حتمي لا يخرج المسلم من دائرة الإيمان إلى الردة أو الكفر .

وهي مسألة طويلة ومعقدة وتحتاج إلى جهد كبير من قبل القائمين عليها ويجب أن تكون على شكل مؤسساتي بعد ان توضع لها الخطط اللازمة لانجاحها وأهمها اخلاص النية والعمل من أجل هذه الأمة التي تكالب عليها الأعداء وكان أخطرهم من برز من داخلها .